الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد العشرون - السنة العاشرة
رجب ١٤١٢ هـ - يناير ١٩٩٢م

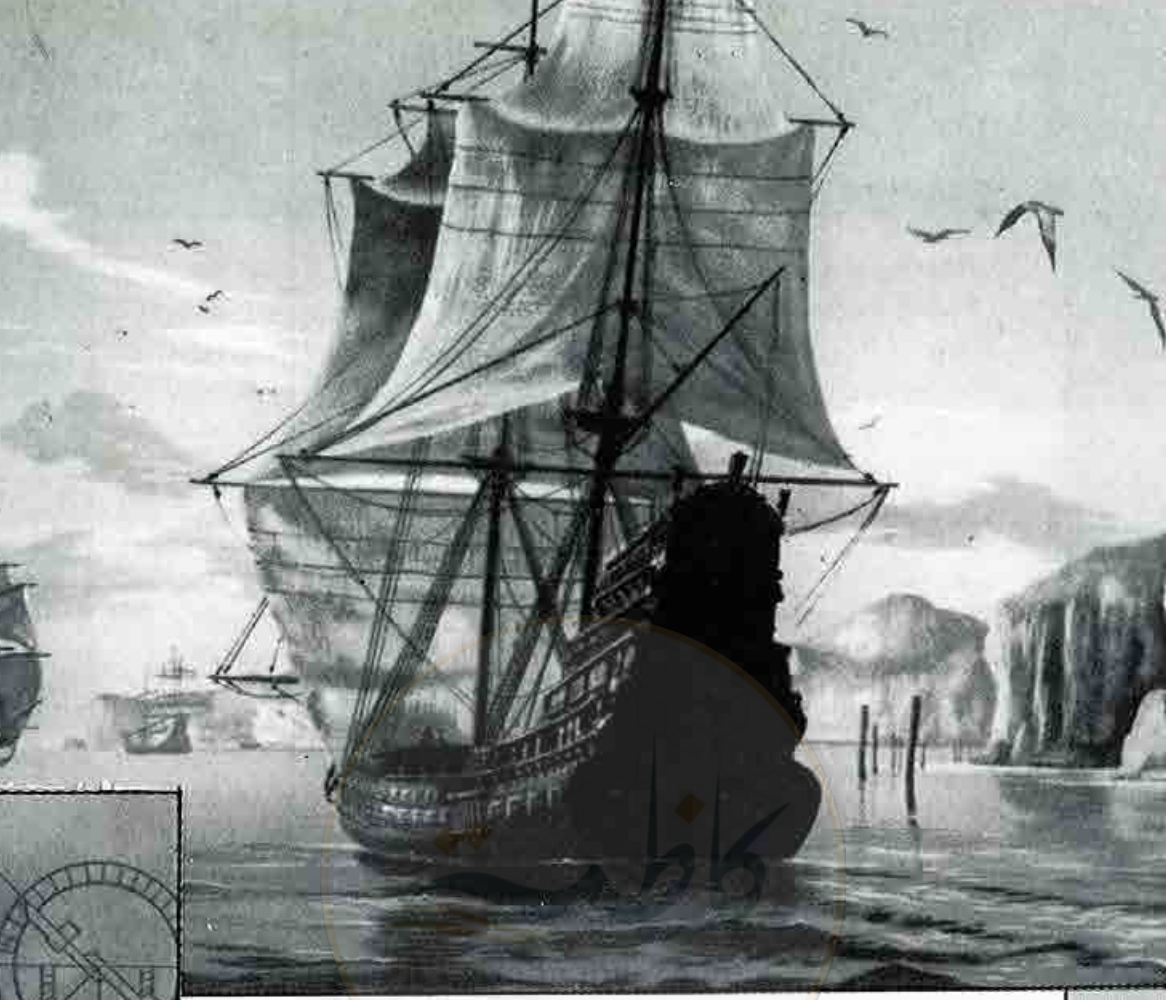

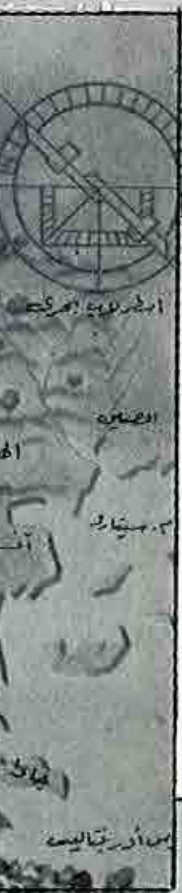

البروفيسور انطونيو دياز فارينها استاذ بجامعة لشبونة واستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بلشبونة أيضا وهو أحد العلماء البرتغاليين المهتمين بالدراسات الشرقية وهو يقدم في هذه الدراسة وجهة نظر برتغالية عن عصر الاكتشافات البرتغالية في الخليج والمحيط الهندي وقد حرصنا على نشر هذه الدراسة في اطار مجموعة البحوث التي نشرتها الوثيقة وتنشرها حول الموضوع حتى تكتمل بذلك وجهات النظر حول هذا العصر .

«الوثيقة»

تسكن الشعوب التى تعتبر عربية فى ايامنا هذه على مسافة واسعة من الاراضي تمتد من شاطىء المحيط الاطلسي الى حدود ايران الغربية ومن جبال طوروس الى مناطق السودان الوسطى والجنوبية . وتتسم

العرب والمسلمون ..

في عصر الاستكشاف البرتغالي

للبروفيسور : انطونيو دياز فارينها ـ البرتغال

جزء من خريطة رسمها بيجو ريبر عام ١٥٢٩ خلال فترة الاستكشافات التي سبقت غزو اوربا لافريقيا وجنوب آسيا

هذه الاراضى بفوارق شاسعة : فمن جهة هناك اكبر الصحارى القاحلة المعروفة على وجه الارض ، ومن جهة اخرى ثمة مناطق خصبة غاية الخصب بما فيها سهول المغرب الغربية ووادى النيل والاقطار ما بين النهرين (دجلة والفرات) وبعض الاودية التى تقع فى لبنان وسوريا وواحات مشهورة متناثرة فى الصحارى جعلت الشعراء العرب يقارنونها بالجنة سواء فى الدنيا او فى الآخرة ..

وتعتبر شعوبا عربية الشعوب التى لغتها الأم هى اللغة العربية وتنتسب الى الثقافة ذات التعبير العربى . اما حياتها الدينية المتخذة اعتبارا من القرن السابع فكانت اسلامية عادة وهذا بعد نزول القرآن على النبى محمد ﷺ وبعد انتشار الاسلام والثقافة العربية بشكل سريع مما ادى الى تكوين منطقة واسعة لاقت تعبيرها الثقافي الخاص - اى العالم العربي الحالى - ومنطقة اخرى اوسع من هذه تسترشد فى حياتها الدينية بنصوص الشريعة حيث يمتد تأثير الاسلام على العادات والقيم الخلقية واللغة واحيانا على التضامن السياسي الذى يذكر بهذا الصدد - وهذا كله فى العالم الاسلامى المعاصر ..

وكثيرا ما يسمى العصر التاريخي الاول للعرب بحضارة الاسلام التقليدي (الكلاسيكى) او حضارة الاسلام او الاسلام فحسب ، حيث يمكن ان تشير هذه الكلمة الى الواقع الدينى - وهو الاسلام - او الحضارة ذات التعبير العربي التى استغرقت من القرن السابع الى القرن الرابع عشر حينما حلت محلها حضارة فضلت التعبير التركي وتبعت تطور هذا الشعب سياسيا وعسكريا فهي جوهر الحضارة التركية الاسلامية التي عاشت تحت رعايتها الاقطار المذكورة اعلاه حتى انهزام تركيا فى الحرب العالمية الاولى وانتصار وعي العرب القومى مما شكل الكيانين العربي والاسلامي على حالهما الراهن ..

غير ان حضارة الاسلام التقليدى او الهيمنة العربية الاسلامية اصبحت تمر بمرحلة من الانحدار فى وقت بدأت فيه اوروبا الغربية حملة توسعية نشيطة ارتدت شكلها الاوضح فى الاستكشاف البرتغالي كما لاقت تكريسها فى الاستعمار الاوروبى المعاصر . وعند اختتام ذلك العصر التاريخي اعطت طاقة العرب الابداعية صورة لعظمتها فى شخصية جوهرية هى - ابن خلدون - . وفى مؤلفاته المتعلقة بتاريخ العالم وتاريخ البرابرة (كتاب العبر) قام ابن خلدون بأحد التحاليل الاكثر واقعية التى كتبت حول سلوك البشر وعقائدهم واختياراتهم وصيرورة الانسانية ..

فى اوائل القرن الخامس عشر استولت على حكم العرب أسر ملكية

مستقلة وفى المغرب على الاخص يذكر بنو مرين من اصل بربرى واضح . كما شهدت المغرب تجزؤ السلطة المركزية وتكاثر الطوائف والاولياء ـ الصوفية والجمعيات الدينية والمرابطين ـ حيث لعب الجميع دورا مزدوجا : من جهة وفى الامد القريب حدث انحطاط في السلطة وسقوط الاسرة الحاكمة ، وفى الامد الأبعد تم ابدالها فى الحكم وتقوى الدين بشكل خاص مع تكاثر الزوايا والمعابد مما كان دليلا على اشتداد التمسك بالدين واعادة ازدهاره ، الشيء الذي كان من شأنه ان يؤدى الى الوحدة السياسية من خلال الجهاد او اثبات الكيان الحضارى المغربي ..

وفى القرن الخامس عشر كان المماليك يمثلون السلطة العربية فى الشرق خاصة وعاصمتهم القاهرة ، رغم ذلك لم تزل اراضيهم تتجزأ اكثر فأكثر امام توسع القوات التركية ..

ومن الجدير بالذكر ان سلطنة عمان وغيرها من السلطنات الصغيرة كانت تقوم بتجارة وسياسة نشيطتين تجاه الاقطار الغنية بما فيها افريقيا الشرقية . وكان الكثير من العرب يرحلون عبر مناطق المحيط الهندى كلها منسجمين انسجاما متزايدا مع السلطات السياسية الاسلامية فى الاقطار الاسلامية مشجعين تشجيعا دائما على اقرار الثقافة ذات التعبير العربي وعلى تنميتها فى الاقطار المذكورة .

وفى القرن الخامس عشر كان العالم الاسلامى يعيش فترة من التوسع هي مرحلة التوسع التركي الاسلامي . ومن الجدير بالذكر تطور حركة الشيعة فى بلاد الفرس مع فقدانها التعبير العربى وانفصالها النهائي عن العالم العربى مؤكدة على اصلها الهند اوروبى الذى يعود الى ما قبل الاسلام وقد ظلت تحتفظ به طوال العصور اللاحقة . وفى القرنين الخامس عشر و السادس عشر قويت تبعية العرب للاتراك مع سقوط المماليك سقوطا نهائيا عام ١٥١٧م وانفصال الفرس القطعى عن القيم العربية حيث ساهم الشيعة مساهمة قيمة فى ثقافة ولغة وتقاليد بلاد الفرس القديمة .

فى هذه الفترة نفسها اضطر العرب الى التنازل عن قيادتهم للعالم الاسلامي سياسيا وثقافيا مما أدى الى نشوء حركات دينية وسياسية ذات طابع وطني وقومى واضح وكثيرا ما كانت معادية للاجانب وحريصة على الاحتفاظ بخصائصها مطبقة الدين الاسلامى على هويتها الخاصة ، كما تتميز هذه الحركات باسترجاع الطقوس القديمة والقدرة الابداعية والابتعاد عن المذاهب التقليدية . يعني بتعبير آخر ان النظم الدينية الوطنية والاولياء والعقائد المحلية اصبحت كلها تمثل اهمية كبرى مطلقة تعكس القيم العليا . وبدأ الاسلام ينتشر فى الشرق الاقصى

والسند قبل القرن الخامس عشر بقليل واعتنقه ابناء المناطق المذكورة على الفور مع اتخاذه شكلا خاصا بها ولائقا لها ، ولذلك عندما وصل البرتغاليون اليها في القرن التالي ناقلين دينا غريبا اجنبيا ومعاديا نوعا ما بطبيعه الحال تحول البرتغاليون الى عوامل تدعم نشر الاسلام كرد للفعل وذلك على الرغم من رغبتهم فى ادخال المسيحية هناك . وكانت الدولة الاسلامية الكبرى فى هذه المناطق وفى الايام التى نعرض لها هنا هى اندونيسيا .

تكونت البرتغال باعتبارها كيانا سياسيا وثقافيا يتمتع بالحكم الذاتي والاستقلال فى القرن الثانى عشر نتيجة لحركة معقدة قامت بها اقوام اوروبا الغربية التى اصبحت تتنظم بقيادة زعمائها وذلك فى نفس الفترة ، فكانت سلطتهم الشرعية تقوم على مبدأ الوراثة معتمدين في قوتهم على حاشية من الاصحاب الاقطاعيين كان امتلاكهم الارض وراثيا ايضا وهم الذين كانوا يقودون الجيوش بهدف الحصول على اراض جديدة لتوسيع عقاراتهم فى صالح انفسهم وذريتهم وأتباعهم . وكانوا يسترشدون بالمذهب المسيحي ويشكلون عاداتهم على ضوء الاخلاقية المسيحية أيضا ويطبقون المبادىء الادارية والسياسية المتينة التى كانت قد تبلورت خلال عصر السلم الروماني الذى كان احد المثل العليا التى تطمح اليها اغلب البلاد الاوروبية . وكانت حياة اوروبا الدينية فى القرون الوسطى تتميز بمختلف اشكال التدين المسيحي بما فيها نظاما (كلونى) و (سيستير) الرهبانيين اضافة الى فصائل الفرسان الرهبان التى نشأت وازدهرت خلال الحروب الصليبية التى استهدفت فتح الارض المقدسة بدعم من سلطة روما البابوية كما تميزت بعبادة الشهداء المقدسين ورحلات الحج الى الاماكن المقدسة بما فيها (سانت ياغو دى كومبوستيلا) التى أصبحت حبلا سريا يربط بين الشمال الغربي من شبه جزيرة ايبيريا واوروبا الوسطى الكاثوليكية . وخلال القرون الطويلة من احتلال المسلمين لاراضي شبه الجزيرة كانت طريق (سانت ياغو) تغذي وفاء اهل هذه الاقطار لمذهب المسيح ..

ولما جاء (دون افونسو انريكش) واعيانه من النبلاء البرتغاليين يؤسسون مملكة لهم ولاهلهم ويضمون اليها اراضى اخرى باستمرار فإنهم فعلوا ذلك باسم المسيحية الغربية ضد المسلمين ذوى الثقافة العربية الممتلكين لاكثر اراضي شبه الجزيرة وكان هذا قبل كل شيء نضالا بين الفصائل التى كانت تستهدف الحصول على الاراضى والثراء والنفوذ لانفسها ولاتباعها أكثر منه نضالا من أجل المسيح ، ولا يرتدي هذا الصراع شكل الخلاف الفكرى الا عندما تحاول الاطراف

الإكتشافات البرتغالية حول لشبونة

إلى متجر ضخم لأوروبا بالقرن الخامس عشر

استعمال تنظيم الدولة تأييدا للنصر وتبريرا له وضمانا لتحقيقه . وتكونت روابط التعايش المتميزة خاصة باحترام الـ (موروش) وهى تسمية اطلقها البرتغاليون على جميع المسلمين الايبيريين والافريقيين الذين تعاملوا معهم . وعند وصولهم الى المحيط الهندى وآسيا اخترع البرتغاليون تسميات اخرى اطلقوها على المسلمين المقيمين هناك مثل الروم (رومشى) اى الاتراك والفرس (برسيوش) ..

غير ان الممالك الايبيرية اخذت تقسم بينها حقوق ملكية الاراضي

المسترجعة من المسلمين وكان هذا التقسيم عامة يتبع الخطوط الهاجرية وفرض عليه احترام صارم كما يدل عليه هجوم (دوم افونسو انريكش) على مدينة بطليوس واجراء مفاوضات معقدة بين ملك البرتغال (دوم دينيش) وملك قشتاليا (افونسو العاشر) بخصوص حرمة الحدود بين المملكتين . وتجدر الاشارة هنا الى تقسيم أراضي شمال افريقيا بين ملكي اراغون وقشتاليا : فكان لاولهما الاراضي شرق وادى ملوية ولقشتاليا اراضي غرب النهر المذكور الى سبتة . والمهم ان الاراضي المسترجعة الواقعة فى غرب سبتة وباتجاه الخطوط الهاجرية دائما اصبحت ملك البرتغال بشكل تلقائي .. كما ظهر الاحترام لحقوق المسيحية الغربية وواجبات استرجاع الاراضى والتبشير بالدين المسيحي فى مراسلة دون افونسو العاشر الى البابا بخصوص جزر كناريا ..

ادى الاستكشاف البرتغالى الى معرفة الكرة الارضية باسرها والى نشوء الحضارة العالمية على نطاق الكوكب والى تأسيس ما يسمى عادة بالعالم العصرى وحدث ذلك فى فترة كانت فيها اوروبا تمر بمرحلة من التوسع .. ونشب اول صراع بين البرتغال وأول بلد عربي اسلامي على ارض افريقيا وهو المغرب .. وكان من الممكن فى القرن الخامس عشر ان تبدأ البرتغال أولى حملاتها لمحاربة مملكة غرناطة الاسلامية ولكن الشروط والحقوق المذكورة أعلاه بخصوص الاراضى المسترجعة اعترضت هذا السبيل ودفعت البرتغال دفعا حاسما الى افريقيا .

ويمكن القول بأن اول حضور للبرتغاليين الى سبتة وفشلهم فى محاولة فتح طنجه عام ١٤٣٧م ، ثم فتحهم القصر الصغير عام ١٤٥٨م واصيلة عام ١٤٧١م واحتلال طنجة عام ١٤٧١م انما تعبر كلها عن رغبة الاسرة الملكية البرتغالية الجديدة - وهى اسرة (افيش) - في تعزيز موقفها السياسي بعد أن كانت قد استولت على السلطة إثر أحداث ١٣٨٣ - ٨٥ بدعم من النبلاء الجدد الذين تولوا الحكم والمناصب العليا في القصر الملكي . اما العلاقات مع «المغاربة» فكانت عدوانية في أغلب الاحوال وخصوصا بعد موت احد ابناء الملك واسمه (دون فيرناندو) فى الأسر المغربى اذ بقي رهينة بعد هزيمة ١٤٣٧م .. والحقيقة ان مملكة البرتغال ضمت العديد من الاراضي الى ممتلكاتها بعد التاريخ المذكور نتيجة الاستكشاف وعلى سبيل المثال جزر ماديرا والآزور والرأس الاخضر ، مما فتح مجالا واسعا للتعمير (جزيرة ماديرا على الاخص) ، حيث اخذت لشبونة تحصل على الكثير من المواد القيمة بما فيها السكر ومواد الصباغة .. وعلاوة على الجزر المذكورة فقد اعتبر اكتشاف ساحل

افريقيا الغربى ، ذا أهمية كبرى من حيث الايرادات الناتجة من شراء الذهب والرقيق الواردين من منطقة ما فى غرب « ارغيم » فى موريتانيا الحالية ومن غينيا وساحل مينا كله .. واعتبارا من ١٤٥٠م اصبح الاستكشاف عملية مربحة لم يزل عائدها يزداد عبر النصف الثانى من القرن الخامس عشر عندما أضيف الى المواد المذكورة اى الذهب ومواد الصباغة وتجارة الرقيق بعض المواد الاخرى مثل بهارات ساحل غينيا اى الفلفل الاحمر (المسمى بحبة الجنة) والفلفل الحلو والعاج والريش وزيت عجل البحر . واتسم النصف الثاني من القرن الخامس عشر بالاهتمام بتنمية النشاط التجارى وازدهار الاقتصاد وتنظيم الفتوحات مما حول لشبونة الى متجر ضخم فى عالم تلك الازمنة .

قبل عام ١٤٧١م كانت البرتغال قد اقامت علاقات سلمية مع منطقة جنوب المغرب ـ اسفي وازمور واكادير وماسة ـ وهى مناطق مشهورة بصنع الأقمشة والمشغولات النحاسية التى كان لا بد منها فى التبادلات التجارية للحصول على الذهب والرقيق من غينيا ومينا .. ولكن اقامة العلاقات المتينة الدائمة مع المغرب بناء على الاعتراف المتبادل بقيمة كل من الشعبين لم تتم الا عام ١٤٧١م اثر عقد الصلح مع الشيخ محمد وهو اول ملك وطاسي . واستمر السلام فترة طويلة ولم ينقطع الا عام ١٥٠٨م مع فتح اسفى اذ كان دون منويل ملك البرتغال يتبع سياسة استعماريه كانت ترى أن من الممكن السيطرة العسكرية على المملكة المغربية . وكان اهم احتلال فى الفترة المذكورة هو احتلال أزمور عام ١٥١٣م وقد بطل مفعوله بعد سنتين إثر هزيمه ما مورة (حاليا القنيطرة) عندما طرد البرتغاليون ومنعوا من انشاء حصن فى مصب وادى سبو .

وينبغي هنا ابراز اهم ملامح العلاقات البحرية مع المغرب . من المعروف ان افريقيا عامة وشاطىء المغرب الاطلسي خاصة كانا يفتقران الى موانىء صالحة للملاحة حيث تسد الرمال والصخور مصاب الاودية ومياه الخليج قليلة العمق وتبقى الموانىء مكشوفة أمام الرياح السائدة مما يجعلها غير صالحة لضمان مدخل دائم للسفن القادمة وقد يكون السبب هو قلة النشاط الملاحى على هذا الساحل فى ذلك العصر وان كان قدتم حاليا انشاء المرافىء الصناعية للتغلب على هذه المشكلة . اما فى العصر المذكور فكانت اهم مدن المراكز التجارية فى داخل البلد مثل فاس ومراكش ومكناس . لذلك واجه البرتغاليون صعوبة كبيرة فى ارساء سفنهم وكان هذا احد اسباب انصرافهم عن الحملة المغربية فى عهد الملك دون جوان الثالث ..

ويعود تغير الموقف البرتغالي خاصة نتيجة رد فعل المغرب نفسها اذ عجز

البحث عن الثراء والأرض كان الدافع وراء الحملات البرتغالية على الشرق

بنو مرين والملوك الوطاسيون عن اعتراض سبيل البرتغاليين وتأسيس دولة موحّدة وكان الكثير من الاقاليم تتجاهل سلطة الملك المقيم فى فاس مطالبة بالدفاع عن نفسها وحكمها الذاتي من خلال رد فعل دينى يتركز على الاولياء او المرابطين بحيث اصبح نشاطهم يرتدى زيا سياسيا وعسكريا اوضح فاوضح . وكانت هنالك طائفة دينية اخرى جعلت عائلة من الشرفاء تؤسس حركة سياسية اجلست على العرش اسرة ملكية جديدة هى الاسرة السعدية . وتعني كلمة « شريف » الشخص الذى ينتمى بنسبة الى رسول الاسلام اما الحركة المسماة بالشريفية فكان هدفها الاحتفاظ بالسلطة السياسية داخل هذه العائلة مما جعل المعارضين يتحدون بقيادة شرفاء سوس الذين نظموا جيشا وفتحوا به مراكش كما حاصروا الحصن البرتغالى فى اكادير حصارا عنيفا ثم احتلوه عنوة وادت هذه الهزيمة الى انسحاب البرتغاليين من اسفى وازمور فى نفس العام ثم الى مغادرتهم القصر الصغير وأصيلة عام ١٥٥٠م . وينبغي هنا ابراز حادث غريب وبليغ المعنى : فإن مولاى محمد الشيخ المهدى المنتصر فى اكادير لم يقاوم جمال الدونه ماسية ابنة القبطان البرتغالى ، وتزوج منها وعندما ماتت أعلن عليها الحداد مدة اربعة اشهر .. والواقع ان انتصار الشريف على البرتغاليين مكّنه من تعزيز سلطته والتغلب النهائى على

● بارتلوميودياز المستكشف البرتغالي

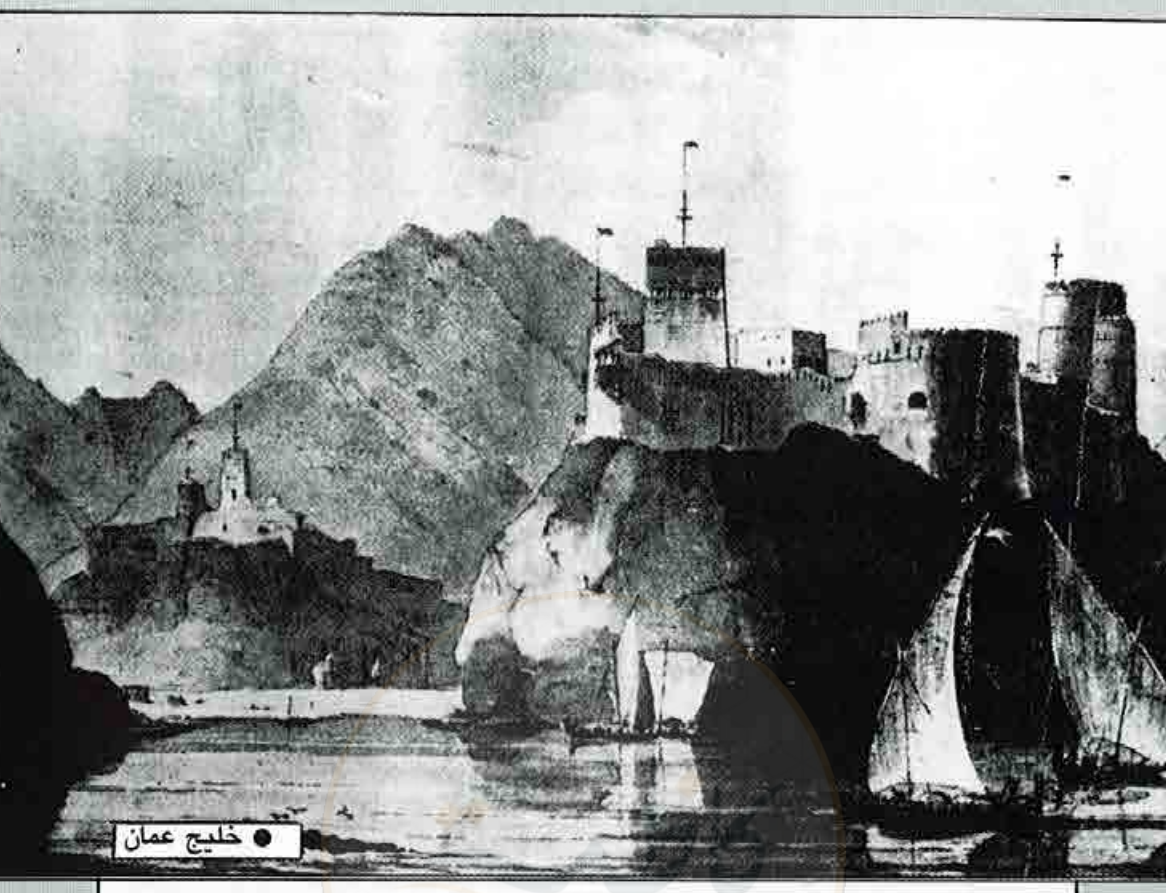

● خليج عمان

اخر الوطاسيين وتبع ذلك توحيد المغرب عام ١٥٥١م عند انتهائه من فتح فاس . واستولى الشرفاء على السلطة فى المغرب فى التاريخ المذكور وما زالوا على العرش حتى الآن اذ تنتمي اسرة الشرفاء العلويين الحالية الى عائلة الشرفاء السعديين آنذاك ..

وفى نفس الفترة أى منتصف القرن السادس عشر نشأ فى البرتغال تياران سياسيان أو فكريان اختلفا تجاه سياسة التوسع المقبل : فاقترح احدهما فتح المغرب ولكنه انحل مع فقدان اكادير وما تبعه اذ اتبع دون جوان الثالث سياسة الانسحاب . وكان على رأس هذا التيار دون سباستيان الذى توجه الى افريقيا لسببين رئيسيين : اولهما سبب داخلي يتعلق بتعزيز السلطة الملكية والثانى سبب خارجي وهو تقدم الاتراك نحو الغرب . وبعد انهزامهم فى ليبانتو عام ١٥٧٢م سلك الاتراك الطرق البرية وكان تابعهم عبد المالك قد عزل مولاى محمد سلطان المغرب عن العرش . وانحاز دون سباستيان لمولاى محمد ضد مغتصب العرش . واسفرت معركة القصر الكبير (وادى المخازن) عن موت الملوك المتحاربين الثلاثة الأمر الذى مكن مولاى احمد المنصور الذهبى (المنصور) من اعتلاء العرش باعتباره مؤسس استقلال المغرب الوطني باعتراضه سبيل التوسع التركى ولما حققه له

انتصاره من شهرة وثراء نتيجة الاموال التى حصل عليها اضافة الى الأموال التى حصل عليها كفدية للأسرى الذين أسرهم فى معركة القصر الكبير . وهكذا ظلت هذه المملكة العربية مستقلة عن السلطة التركية حتى جاء الاستعمار الاوروبى .

ذكرنا نشوء تيارين توسعيين فى البرتغال فى منتصف القرن السادس عشر اتجه احدهما الى المغرب . اما التيار الثانى فكان يمد بصره الى الشرق منذ ان وصل فاسكو دا غاما في الى بندر كاليكوت عام ١٤٩٨م . وكانت سياسة الملك دون جوان الثاني تشجع توجيه التوسع نحو الهند اذ اصبح دون جوان ممثلا لاهداف التوسع ومثله العليا وكان قد اختار الشرق كآخر مرحلة من مراحل الاستكشاف وذلك منذ ١٤٧٤م اى قبل جلوسه على العرش . وتميز حكمه بالنمو الاقتصادى الكبير نتيجة للتجارة فى البهارات والذهب الافريقى . وكان الازدهار الاقتصادى المذكور من شأنه ان يحث الملك والعديد من فئات اهل المملكة على توسيع مجال التجارة الى الاقطار فيما وراء البحار . كان دون جوان محتاجا الى حلفاء يساعدونه على تجاوز الحاجز الاسلامي الذى كان يحول بينه وبين مخططه وظن انه وجد ذلك الحليف في القسيس جوان المسيحي ملك الحبشه الامر الذى يفسر ارسال عدة بعثات الى الشرق ـ بما فيها واحدة رأسها (بيرو دا كوفيليا) كان هدفها اعداد تقرير للملك عن انتاج البهارات وتجارتها .

وكانت تفاصيل رحله (فاسكو دا غاما) ماثلة للعيان وفيها تجربه اختلاطه من المسلمين إبان سفره الى الشرق . وابتداء من ساحل افريقيا الشرقي ذكر وجود العرب والمسلمين فى جزيرة موزامبيق وقد جاء فى يوميات سفر (الفرو فيليو) : ما يأتى:ينتمى اهل هذا البلد الى دين محمد ويتكلمون كالمغاربة (يعنى باللغة العربية) وهم تجار ويتجرون مع المسلمين البيض الذين شاهدنا لهم فى هذا المكان اربع سفن .. وكان مع (القبطان مور) ملاح يفهم حديثهم كله لانه كان اسيرا عند المغاربة ولذلك فهم حديث الذين وجدناهم هنا .. ويضيف:وكان فى هذا المكان المسمى جزيرة موزامبيق سيد يدعونه سلطان الجزيرة وهو منصب يعادل نائب الملك عندنا « وقد اقام علاقات جيدة مع البرتغاليين فقد حسبونا اتراكا او مسلمين قادمين من أى مكان آخر اذ كانوا يسألوننا هل جئنا من تركيا ويطلبون ان نطلعهم على شعارات بلادنا وكتب ديننا ، وبعد ان علموا بأننا مسيحيون أمروا بالقاء القبض علينا وقتلنا وبعد بضعة ايام كتب (الفرو فيليو) « ان ملك موزامبيق بلغنا رغبته فى عقد الصلح معنا وأنه كان بوده ان يصبح صديقا لنا » وقد بلغنا بشرى السلامة هذه مسلم ابيض

وهو شريف أى من رجال الدين .

وكانت جزيرة موزامبيق بابا إنفتح على مصراعيه امام البرتغاليين دخلوا منه الى حضارة منطقة المحيط الهندى بطوائفها الدينية المتنوعة التى كانت سببا في انتشار الاسلام فى تلك الاقطار علاوة على كثرة العطور الرائعه والتوابل النادرة المختلفة التى كانت تلبي الميل الى الترف وتتفق وذوق ابناء تلك المناطق وهى الاشياء التى بدأت تنفد فى اوروبا ، ومنذ سفر (فاسكو دا غاما) اصبح البرتغاليون ينقلون هذه السلع التى كانت علامة على التمدين .

أما فى أوائل القرن التالى ـ اى القرن السادس عشر ـ فقد طرأت تغيرات ملحوظة على اوضاع الشرق الدينية والسياسية حيث اصبح العنصر البرتغالي احد العوامل النشيطة فى هذا الاطار . كانت القاهرة مقر السلطة القديمة وهى بايدى المماليك ومنهم السلطان قنصوه الغورى الذى تولى الحكم عام ١٥٠٠م بالضبط وكانوا من اهل السنة كما كان يقيم فى القاهرة الخليفة العباسى دون ان تكون له اية سلطة حقيقيه بل كان وجوده يعتبر نوعا من الدعم الذى يعزز شرعيه حكم المماليك . وكان السلطان بايزيد الثاني يحكم في اسطنبول على رأس قوات الاتراك العثمانيين وهم من اهل السنة كذلك وكانوا قد اعدوا جيشا قويا جعلوا الاولوية فيه للمدفعية وسائر الاسلحة النارية . اما بلاد الفرس فكانت قد شهدت انتصار الصفويين واتخذ زعيمهم اسماعيل الصفوى لنفسه لقب «شاه» عام ١٥٠٠م وفى نفس الوقت فرض المذهب الشيعي على دولته . وكان الشرفاء الادريسيون يتولون حراسة اماكن الاسلام المقدسة في مكة والمدينة تحت وصاية مماليك مصر . وكانت الطائفة العبادية تزدهر فى عمان وكانت تعبيرا عن تيار معتدل نابع عن المذهب الخارجي . وكان المبدأ الانتخابي فى هذا البلد قد أخذ يختفى وترك زعماؤه لقب « الامام » وأخذوا يستعملون تسمية « سلطان » بعد أن اتبعوا المبدأ الوراثى .

ومن البديهي ان تجزؤ العالم الاسلامى كما سبق ذكره كان لا بد ان يساعد على نشوب صراعات داخلية واضعاف مختلف الاقطار فى الظروف الجديدة التى خلقها حضور البرتغاليين والاوروبيين عامة الى منطقة المحيط الهندى . وخلال حكم السلطان سليم الاول التركي حدثت بعض الاصطدامات الأساسية مما قرر مصير هذه المناطق كما حدد مستقبل الاتراك وبلاد الفرس وبعد ان تغلب الاتراك على الشاه اسماعيل الصفوى عام ١٥١٤م عقدوا الصلح معه بعد أن اعطاهم بعض الاراضي ، كما انتصر الاتراك على المماليك وضموا مصر عام ١٥١٧م واصبحوا بذلك حراس الاماكن الاسلامية

البرتغاليون لم يستطيعوا السيطرة على الشرق وإنما سيطروا على بحاره

المقدسة . وبعد هذا التاريخ تعمق تقسيم الشرق الاوسط بين الاتراك السنيين والفرس الشيعيين ..

وقد تمكن البرتغاليون من التغلب على معارضيهم فى المحيط الهندى خلال فترة وجيزة وذلك نتيجة لتفوق الاسطول ونظرا لحسن بناء السفن والمدفعية الحديثة والقيادة الموحدة وتنسيق حركات الاسطول طبقا لتسلسل عسكرى منظم . ومن الجدير بالذكر هنا ان البرتغاليين لم يسيطروا على الشرق بل على بحاره واقروا سلمهم بناء على تفوق ملاحتهم حيث كان تأثيرهم على البر غير مباشر وقائما

على الاخص على التحكم فى المعاملات التجارية وبيع الاسلحة والعتاد العسكرى للاطراف المتنازعة وينبغي ذكر شرائهم الخيول من جزيرة العرب لاستعمالها فى الحروب الجارية فى شبه القارة الهندية . كما تمكن التدخل البرتغالى من تغيير سير الاحداث الذى كان متوقعا فى بعض الاماكن مثلما حدث فى الحبشة التى كانت مهددة بالسقوط تحت هجوم العرب المسلمين ، فجاء (دون كريشتوفاو دا غاما) على رأس جيش لمساعدة (بريست جوان) الذى مكنته هذه المساعدة من الانتصار مما أبقى على وجود تلك المملكة المسيحية وسط منطقة نفوذ المسلمين .

وشكلت سيطرة البرتغاليين على بحار الشرق حاجزا فى وجه توسع الاتراك نحو الجنوب ومن جهة أخرى قام الشاه اسماعيل الصفوى بتنظيم الدولة الفارسية رغم هزيمة ١٥١٤ ووقف في وجه توسع الاتراك نحو الشرق ومن جهة ثالثة سدت الاساطيل البرتغالية طريق الاتراك الى المحيط الهندى . اما اهل جزيرة العرب فإنهم حظوا بشبه استقلال نظرا لموقع بلادهم الحصين وبعد اندحار البرتغاليين أسرعوا يحلون محلهم على الطرق الملاحيه فى بحار الجنوب وخاصة على ساحل افريقيا الشرقي مع مجيء العمانيين .

وفى المناطق الشرقية البعيدة ـ السند مثلا ـ ساعد وجود البرتغاليين على نشر الاسلام وكان عدد قليل من أبناء السند قد أسلموا قبل حضورهم ، ونذكر بهذا الصدد « ملقا » حيث بنى البرتغاليون حصنين فى « ترنات » و « تبدور » ، وتعزز الاسلام فى جميع هذه الاراضي بعد حضور البرتغاليين اليها . ويمكن القول بان حظ الأسبان كان احسن من وجهة النظر هذه لانهم وصلوا الى جزر الفيليبين عند بدايه انتشار الاسلام فيها ولذلك نجحوا في تمسيح أغلبية سكانها ..

كان البرتغاليون يميزون بين العرب والمسلمين تمييزا واضحا يؤكد ذلك ما جاء فى « دليل سفر » وضعه « انطونيو تنريرو » سجل فيه تجارب اقامته فى « هرمز » وتجاربه التى يعود تاريخها الى الربع الثاني من القرن السادس عشر ، وقد كتب عن اهل هرمز يقول : « يتدين السكان بدين محمد ومنهم الفرس ومنهم العرب ويتكلمون باللغتين العربية والفارسية . العرب سمر اللون والفرس بيض وهناك اختلاف فى ملاح الخلقة والكل يحبون الترف سواء فى الاكل أو في غيره من الشهوات الجسدية ويجيدون ركوب الخيل بحيث يلعبون بالكرة وهم على ظهر الحصان كما يحذقون الغناء وعزف آلات السماع ويحبون قراءة القصص القديمة وتتوافر عندهم الكثير من المواهب . ويغارون على نسائهم أشد الغيرة ومعهم الحق لانهن جميلات

للغاية »

وفى الفصل الخامس يتحدث « انطونيو تنريرو » عن أصل اسماعيل شاه الصفوى مؤسس الدولة الصفوية بنظامها الديني والسياسي يقول تنريرو :

« كان الصفوى ابن شيخ مشهور بين المسلمين وصاحب بلدة اسمها ارداويل وكانت امه ايضا بنت سيد عظيم وقد كبر هنا بصحبة الرهبان الارمن الى ان بلغ سن الرشد وتلقى على ايديهم ما كانوا يعلمونه من الامور .. ثم غادر هذه المملكة مع بعض الفرسان وأسرع بفتح مدن وقرى فارس واينما وصل منح للناس كل ما حصل عليه من غنائم وبدأ يذيع ويعلن نفسه كاحد اقرباء على بن أبى طالب ويقول ان ملوك تلك البلاد لا يتبعون دين محمد وعلي حرفيا .. ووضع على رأسه قلنسوة حمراء طويلة القمة ومزخرفة باثنتي عشرة ثنية وجعل جميع أتباعه يلبسون نفس القلنسوة ومعهم كتاب يحتوى على مذهبه » .

ومن الواضح ان الحديث يجرى هنا حول المذهب الشيعي الاثنى عشري .. اما في الفصل الثامن فيذكر الكاتب ان اهل اصفهان كانوا يعارضون مذهب الصفوى نظرا لأنهم من اهل السنة .

لقد كان « ارنولد توينبى » على حق عندما قال ان التاريخ الحديث بدأ من رحلة « فاسكو دا غاما » اى من اقرار العلاقة المباشرة بين الغرب والشرق ، او بتعبير آخر ان التاريخ الحديث بدأ بالاتصال المباشر بين البرتغاليين والعرب وغيرهم من المسلمين ، اولا فى شمال افريقيا ثم فى منطقة المحيط الهندى اى فى الشرق . وأن ذلك ترك آثاره على تطور العلاقات التاريخية اللاحقة . ورغم ان الشعوب الاخرى اتخذت بدورها بعض المبادرات الا أنه ستظل للبرتغاليين الريادة ولهم فضل القيام باللقاء الاول . ان المغاربة والبرتغاليين على وعى تام بالعلاقة القديمة بين تاريخ الشعبين . وفى الوقت الاخير وخلال الثماني السنوات الماضية اجرت جامعة نيويورك تنقيبات أثريه ودراسات انثروبولوجية فى مدينة القصر الصغير حيث تم الكشف عن مئات الهياكل مما سمح بتحديد المؤثرات الانثروبومترية للبرتغاليين الذين كانوا يعيشون فى تلك الازمنة ، كما تم اكتشاف بعض الفخار والزجاجيات وقراءة الكثير من النقوش وترميم الاسوار علاوة على اكتشاف ما يزيد على الف وخمسمائة عملة برتغالية ترجع الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر . وتولت الجهات الرسمية المغربية حراسة هذا التراث الحضارى القيم بالتعاون مع الجامعة الامريكية كما اجريت اعمال دقيقة لترميم بعض المدن البرتغالية السابقة مثل مزغان (الجديدة)

وازمور واسفي .

وابدى الشرق بدوره اهتماما بتمجيد تراثه الحضارى ، وعلى سبيل المثال القيام بترميم حصن عيسى فى مومباسه وترميم قلعة البحرين بمشاركة بعض الخبراء الفرنسيين فى علم الآثار ومحاولة الاحتفاظ بالحصون القديمه فى عمان بمشاركة بعض المهندسين المعماريين البرتغاليين . وهنالك قرية فى رأس الخيمة (الامارات العربية المتحدة) لم يزل اهلها حتى الآن يعلنون اصلهم البرتغالي . وتأسست جمعية مهمتها الحفاظ على الآثار التاريخية بالغة الأهمية فى جزيرة موزامبيق ، حيث لا تهتم هذه الجمعية بآثار الماضي البرتغالي فقط بل ايضا بإبراز قيمة سائر التراث الثقافى بما فيه التراث الاسلامى .

كما تشهد البرتغال حاليا اهتماما تزايدا بدراسة الماضي وتأثيره على النشاط المقبل . وجاء فى هذا الاطار انعقاد مؤتمر الدراسات العربية والاسلامية فى « ايفوره » و « فارو » قبل فترة وجيزة ، مما آثار الاهتمام بمناطق البرتغال الجنوبية . وكذلك مؤتمر التاريخ البرتغالي الهندي فى مدينة جوا الذي حظى بحضور بعض الشخصيات البرتغالية ..